بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة . وقد روى ابن جرير ههنا أثراً غريباً عجيباً منكراً فقال اخبرنا احمد بن زهير حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي حدثنا ابو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج عن ارطأة بن المنذر قال : جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال له وعنده حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه أخبرني عن تفسير قول الله تعالى ﴿ حم ، عسق ﴾ قال فأطرق ثم أعرض عنه ثم كرر مقالته فأعرض عنه فلم يجبه بشيء وكره مقالته ، ثم كررها الثالثة فلم يحر إليه شيئاً فقال له حذيفة رضي الله عنه أنا أنبئك بها قد عرفت لم كرهها ونزلت في رجل من أهل بيته يقال له عبد الاله وعبد الله ينزل على نهر من أنهار المشرق تبنى عليه مدينتان يشق النهر بينهما شقا فاذا اذن الله تبارك وتعالى في زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدتهم بعث الله عز وجل على إحداها ناراً ليلاً فتصبح سوداء مظلمة وقد احترقت كأنها لم تكن مكانها وتصبح صاحبتها متعجبة كيف أفلتت ؟ فما هو إلا بياض يومها ذلك حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم ثم يخسف الله بها وهم جميعاً فذلك قوله تعالى : ﴿ حم ، عسق ﴾ يعني عزيمة من الله تعالى وفتنة وقضاء حم عين يعني عدلاً منه سين يعني سيكون ق يعني واقع بهاتين المدينتين وأغرب منه ما رواه الحافظ ابو يعلى الموصلي في الجزء الثاني من مسند ابن عباس رضي الله عنه عن ابي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ في ذلك ولكن إسناده ضعيف جداً ومنقطع فانه قال حدثنا أبو طالب عبد الجبار بن عاصم حدثنا أبو عبد الله الحسن بن يحيى الخشني الدمشقي عن ابي معاوية قال : صعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه المنبر فقال : ايها الناس هل سمع منكم احد رسول الله ﷺ يفسر ﴿ حم ، عسق ﴾ فوثب ابن عباس رضي الله عنه فقال أنا ، قال حم اسم من اسماء الله تعالى ، قال فعين ؟ قال عاين المولون عذاب يوم بدر ، قال فسين ؟ قال سيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون ، قال فقاف ؟ فسكت فقام ابو ذر ففسر كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وقال قاف قارعة من السماء تغشى الناس . وقوله عز وجل ﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ اي كما أنزل اليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب والصحف على الانبياء قبلك . وقوله تعالى : ﴿ الله العزيز ﴾ أي في انتقامه ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله .

قال الامام مالك رحمه الله عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة رضي الله عنها فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ﷺ ليتفصد عرقاً . أخرجاه في الصحيحين ولفظه للبخاري . وقد رواه الطبراني عن عبد الله ابن الامام احمد عن أبيه عن عامر بن صالح عن هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة رضي الله عنها عن الحارث بن هشام انه سأل رسول الله ﷺ كيف ينزل عليك الوحي ؟ فقال ﷺ « في مثل صلصلة الجرس فيفصم عني وقد وعيت ما قال ـ وقال ـ وهو اشده علي ـ قال ـ وأحياناً يأتيني الملك فيتمثل لي فيكلمني فأعي ما يقول » . وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن عمرو بن الوليد عن عبد الله بن عمرو

رضي الله عنهما قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله هل تحس بالوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ « أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تقبض » تفرد به أحمد ، وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحي إلى رسول الله ﷺ في أول شرح البخاري بما أغنى عن إعادته ههنا ولله الحمد والمنة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ له ما في السموات وما في الارض ﴾ أي الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وهو الكبير المتعال ﴾ ﴿ وهو العلي الكبير ﴾ والآيات في هذا كثيرة . وقوله عز وجل ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك وقتادة والسدي وكعب الأحبار اي فرقا من العظمة ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الارض ﴾ كقوله جل وعلا ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ ألا ان الله هو الغفور الرحيم ﴾ إعلام بذلك وتنويه به ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ يعني المشركين ﴿ الله حفيظ عليهم ﴾ أي شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدها عداً ، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي انما انت نذير والله على كل شيء وكيل .

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

يقول تعالى وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿ أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴾ أي واضحاً جلياً بيناً ﴿ لتنذر أم القرى ﴾ وهي مكة ﴿ ومن حولها ﴾ أي من سائر البلاد شرقاً وغرباً ، وسميت مكة ام القرى لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها ، ومن أوجز ذلك وأدله ما قال الامام أحمد حدثنا ابو اليمان حدثنا شعيب عن الزهري حدثنا ابو سلمة بن عبد الرحمن قال : ان عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة في سوق مكة « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت » هكذا رواية الترمذي والنسائي وابن ماجة من حديث الزهري به وقال الترمذي حسن صحيح . وقوله عز وجل ﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد وقوله تعالى : ﴿ لا ريب فيه ﴾ اي لا شك في وقوعه وأنه كائن لا محالة ، وقوله جل وعلا ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾ اي يغبن أهل الجنة اهل النار ، وكقوله عز وجل ﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود * وما نؤخره الا لأجل معدود * يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ﴾ قال الامام احمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا ليث حدثني ابو قبيل المعافري عن شفي الاصبحي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال « أتدرون ما هذان الكتابان ؟ » قلنا لا إلا أن تخبرنا يا رسول الله . قال ﷺ للذي في يمينه « هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ـ ثم أجمل على آخرهم ـ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ـ ثم قال ﷺ للذي في يساره ـ هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً » فقال أصحاب رسول الله ﷺ فلأي شيء نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه قال رسول الله ﷺ « سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل » ثم قال ﷺ بيده فقبضها ثم قال « فرغ ربكم عز وجل من العباد ـ ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال ـ فريق في الجنة ـ ونبذ باليسرى وقال ـ فريق في السعير » وهكذا رواه الترمذي والنسائي جميعاً عن قتيبة عن الليث بن سعد وبكر بن مضر كلاهما عن أبي قبيل عن شفي بن مانع الأصبحي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما به ، وقال الترمذي حسن صحيح غريب وساقه البغوي في تفسيره من طريق بشر بن بكر عن سعيد بن عثمان عن أبي الزاهرية عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فذكره بنحوه وعنده زيادات منها ـ ثم فريق في الجنة وفريق في السعير عدل من الله عز وجل ـ ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عن الليث به ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبي قبيل عن شفي عن رجل من الصحابة رضي الله عنهم فذكره .

ثم روي عن يونس عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث وحيوة بن شريح عن يحيى بن أبي أسيد أن أبا فراس حدثه أنه سمع عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يقول : إن الله تعالى لما خلق آدم نفضه نفض المرود وأخرج منه كل ذريته فخرج أمثال النغف فقبضهم قبضتين ثم قال شقي وسعيد ثم ألقاهما ثم قبضهما فقال فريق في الجنة وفريق في السعير وهذا الموقوف أشبه بالصواب والله سبحانه وتعالى أعلم . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد يعني ابن سلمة أخبرنا الحريري عن أبي نضرة قال : إن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعني يزورونه فوجدوه يبكي ، فقالوا له ما يبكيك ؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقاني ، قال بلى ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله تعالى قبض بيمينه قبضة وأخرى باليد الأخرى قال هذه لهذه وهذه لهذه ولا أبالي » فلا أدري في أي القبضتين أنا وأحاديث القدر في الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جداً منها حديث علي وابن مسعود وعائشة وجماعة جمة رضي الله عنهم أجمعين . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ﴾ أي إما على الهداية أو على الضلالة ولكنه تعالى فاوت بينهم فهدى من يشاء إلى الحق وأضل من يشاء عنه وله الحكمة والحجة البالغة ولهذا قال عز وجل ﴿ ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير ﴾ .

وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا وهيب أخبرني الحارس عن عمرو بن ابي سويد أنه حدثه عن ابن حجيرة أنه بلغه ان موسى عليه الصلاة والسلام قال : يا رب خلقك الذين خلقتهم جعلت منهم فريقاً في الجنة وفريقاً في النار لو ما أدخلتهم كلهم الجنة فقال يا موسى ارفع درعك فرفع قال قد رفعت قال ارفع فرفع فلم يترك شيئاً قال يا رب قد رفعت قال ارفع قال قد رفعت إلا ما لا خير فيه قال كذلك أدخل خلقي كلهم الجنة إلا ما لا خير فيه .

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ومخبراً أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده فانه هو القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير . ثم قال عز وجل ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله ﴾ اي مهما اختلفتم فيه من الامور وهذا عام في جميع الاشياء ﴿ فحكمه الى الله ﴾ اي هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ كقوله جل وعلا ﴿ فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ذلكم الله ربي ﴾ اي الحاكم في كل شيء ﴿ عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ اي ارجع في جميع الامور ، وقوله جل جلاله ﴿ فاطر السموات والارض ﴾ اي خالقهما وما بينهما ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ اي من جنسكم وشكلكم منة عليكم وتفضلاً جعل من جنسكم ذكراً وانثى ﴿ ومن الأنعام أزواجاً ﴾ اي وخلق لكم من الانعام ثمانية أزواج . وقوله تبارك وتعالى ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ أي يخلقكم فيه اي في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم فيه ذكوراً وإناثاً خلقاً من بعد خلق وجيلاً بعد جيل ونسلاً بعد نسل من الناس والأنعام وقال البغوي يذرؤكم فيه أي في الرحم وقيل في البطن وقيل في هذا الوجه من الخلقة . قال مجاهد نسلاً بعد نسل من الناس والأنعام ، وقيل في بمعنى الباء اي يذرؤكم به ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ اي ليس كخالق الازواج كلها شيء لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ﴿ وهو السميع البصير ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ تقدم تفسيره في سورة الزمر وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ اي يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء وله الحكمة والعدل التام ﴿ إنه بكل شيء عليم ﴾ .

۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾

وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوْرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾

يقول تعالى لهذه الأمة ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك ﴾ فذكر اول الرسل بعد آدم عليه السلام وهو نوح عليه السلام وآخرهم وهو محمد ﷺ . ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهو إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ﴾ الآية والدين والذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال عز وجل ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ . وفي الحديث « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » اي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم كقوله جل جلاله ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ اي وصى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة . ونهاهم عن الافتراق والاختلاف ، وقوله عز وجل ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ اي شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم اليه يا محمد من التوحيد . ثم قال جل جلاله ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ أي هو الذي يقدر الهداية لمن يستحقها ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ اي إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه اليهم وقيام الحجة عليهم وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشقة ثم قال عز وجل ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى ﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل عليهم العقوبة في الدنيا سريعاً . وقوله جلت عظمته ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ﴾ يعني الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿ لفي شك منه مريب ﴾ أي ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان وهم في حيرة من أمرهم وشك مريب وشقاق بعيد .

فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۡۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۡۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات كل منها منفصلة عن التي قبلها حكم برأسها ، قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسي ، فانها أيضاً عشرة فصول كهذه . وقوله ﴿ فلذلك فادع ﴾ أي فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك ، أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم فادع الناس اليه . وقوله عز وجل ﴿ واستقم كما أمرت ﴾ أي واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم الله عز وجل ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ يعني المشركين فيما اختلقو فيه وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان .

وقوله جل وعلا ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ أي صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحد منهم . وقوله ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ أي في الحكم كما أمرني الله ، وقوله جلت عظمته ﴿ الله ربنا وربكم ﴾ أي هو المعبود لا إله غيره فنحن نقر بذلك اختيارا وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً فله يسجد من في العالمين طوعاً واجبارا . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ أي نحن براء منكم ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ قال مجاهد : أي لا خصومة . قال السدي : وذلك قبل نزول آية السيف ، وهذا متجه لأن هذه الآية مكية ، وآية السيف بعد الهجرة . وقوله عز وجل ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ أي يوم القيامة ، كقوله ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾ وقوله جل وعلا ﴿ واليه المصير ﴾ أي المرجع والمآب يوم الحساب .

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

يقول تعالى متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ﴿ والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له ﴾ أي يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ أي باطلة عند الله ﴿ وعليهم غضب ﴾ أي منه ﴿ ولهم عذاب شديد ﴾ أي يوم القيامة ، قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد : جادلوا المؤمنين بعدما استجابوا لله ولرسوله ليصدوهم عن الهدى وطمعوا أن تعود الجاهلية ، وقال قتادة : هم اليهود والنصارى قالوا لهم ديننا خير من دينكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالله منكم ، وقد كذبوا في ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق ﴾ يعني الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿ والميزان ﴾ وهو العدل والانصاف ، قاله مجاهد وقتادة ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ وقوله ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ فيه ترغيب فيها وترهيب منها وتزهيد في الدنيا ، وقوله عز وجل ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ أي : يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، وإنما يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً وكفراً وعناداً ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ أي خائفون وجلون من وقوعها ﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ أي كائنة لا محالة ، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها . وقد روي من طرق تبلغ درجة التواتر في الصحاح والحسان والسنن والمسانيد ؛ وفي بعض ألفاظه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري وهو في بعض أسفاره ، فناداه فقال : يا محمد ، فقال له رسول الله ﷺ نحوا من صوته « هاؤم » ، فقال له : متى الساعة ؟ فقال رسول الله ﷺ « ويحك إنها كائنة فما أعددت لها ؟» فقال : حب الله ورسوله ؛ فقال ﷺ « أنت مع من أحببت » ، فقوله في الحديث « المرء مع من أحب » هذا متواتر لا محالة . والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة بل أمره بالاستعداد لها . وقوله تعالى : ﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة ﴾ أي يجادلون في وجودها ويدفعون وقوعها ﴿ لفي ضلال بعيد ﴾ اي في جهل بين ، لأن الذي خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى ؛ كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ .

ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم لا ينسى أحدا منهم ، سواء في رزقه البر والفاجر ، كقوله عز وجل ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ ولها نظائر كثيرة ، وقوله جل وعلا ﴿ يرزق من يشاء ﴾ أي يوسع على من يشاء ﴿ وهو القوي العزيز ﴾ أي لا يعجزه شيء ثم قال عز وجل ﴿ من كان يريد حرث الآخرة ﴾ أي عمل الآخرة ﴿ نزد له في حرثه ﴾ أي نقويه ونعينه على ما هو بصدده ونكثر نماءه ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ أي ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا وليس له إلى الآخرة هم البتة بالكلية حرمه الله الآخرة والدنيا إن

شاء أعطاه منها وإن لم يشأ لم يحصل لا هذه ولا هذه ، وفاز الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة ، والدليل على هذا أن هذه الآية ههنا مقيدة بالآية التي في سبحان وهي قوله تبارك وتعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً** ﴾ .

وقال الثوري عن معمر عن أبي العالية عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب» وقوله جل وعلا ﴿**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله**﴾ أي هم لايتبعون ماشرع الله لك من الدين القويم بل يتبعون ماشرع لهم شياطينهم من الجن والإنس من تحريم ماحرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأموال الفاسدة وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة يجر قصبه في النار» لأنه أول من سيب السوائب ، وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة وهو أول من فعل هذه الأشياء وهو الذي حمل قريشاً على عبادة الأصنام لعنه الله وقبحه ولهذا قال تعالى : ﴿**ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم**﴾ أي لعوجلوا بالعقوبة لولا ماتقدم من الإنظار الى يوم المعاد ﴿**وإن الظالمين لهم عذاب أليم**﴾ أي شديد موجع في جهنم وبئس المصير .

ثم قال تعالى : ﴿**ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا**﴾ أي في عرصات القيامة ﴿**وهو واقع بهم**﴾ أي الذي يخافون منه واقع بهم لامحالة هذا حالهم يوم معادهم وهم في هذا الخوف والوجل ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم مايشاءون عند ربهم**﴾ فأين هذا من هذا ؟ أي أين من هو في العرصات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ممن هو في روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر . قال الحسن بن عرفة : حدثنا عمرو بن عبد الرحمن الأبار ، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري عن أبي طيبة قال إن الشرب من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول ماأمطركم ؟ قال فما يدعو داع من القوم بشيء إلا أمطرتهم حتى إن القائل منهم ليقول أمطرينا كواعب أتراباً . ورواه ابن جرير عن الحسن بن عرفة به ، ولهذا قال تعالى : ﴿**ذلك هو الفضل الكبير**﴾ أي الفوز العظيم والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة .

ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات ، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿**ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي هذا حاصل لهم كائن لامحالة ببشارة الله تعالى لهم به . وقوله عز وجل ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى**﴾ أي قل يامحمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونيه وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني وتذروني أبلغ رسالات ربي إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة . قال البخاري حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة قال : سمعت طاوساً يحدث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سأل عن قوله تعالى إلا المودة في القربى فقال سعيد بن جبير قربى آل محمد فقال ابن عباس عجلت إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة فقال إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة ، انفرد به البخاري ، ورواه الإمام أحمد بن يحيى القطان عن شعبة به ، وهكذا روى عامر الشعبي والضحاك وعلي بن أبي طلحة والعوفي ويوسف بن مهران وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله ، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا هاشم بن القاسم بن زيد الطبراني وجعفر القلانسي قالا : حدثنا آدم بن أبي

إياس ، حدثنا شريك عن خصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال لهم رسول الله ﷺ «لاأسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي لقرابتي منكم وتحفظوا القرابة بيني وبينكم» وروى الإمام أحمد عن حسن بن موسى ، حدثنا قزعة يعني ابن سويد بن أبي حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن قزعة بن سويد عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال «لا أسألكم على ماآتيتكم من البينات والهدى أجراً إلا أن تودوا الله تعالى وأن تقربوا إليه بطاعته» وهكذا روى قتادة عن الحسن البصري مثله وهذا كأنه تفسير بقول ثان كأنه يقول إلا المودة في القربى أي إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى . وقول ثالث وهو ما حكاه البخاري وغيره رواية عن سعيد بن جبير مامعناه أنه قال معنى ذلك أن تودوني في قرابتي أي تحسنوا إليهم وتبروهم .

وقال السدي عن أبي الديلم قال : لما جيء بعلي بن الحسين رضي الله عنه أسيراً فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة فقال له علي بن الحسين رضي الله عنه : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم ، قال : أقرأت آل حم ؟ قال : قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم ، قال : ماقرأت ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ قال : وإنكم لأنتم هم ؟ قال : نعم ، وقال أبو إسحق السبيعي : سألت عمرو بن شعيب عن قوله تبارك وتعالى : ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ فقال : قربى النبي ﷺ رواهما ابن جرير .

ثم قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا عبد السلام ، حدثني يزيد بن أبي زياد عن القاسم عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قالت الأنصار : فعلنا وفعلنا وكأنهم فخروا ، فقال ابن عباس أو العباس رضي الله عنهما - شك عبد السلام - لنا الفضل عليكم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاهم في مجالسهم فقال «يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي ؟» قالوا بلى يارسول الله ﷺ قال ﷺ «ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي ؟» قالوا : بلى يارسول الله ، قال «أفلا تجيبوني؟» قالوا : مانقول يارسول الله ؟ قال «ألا تقولون ألم يخرجك قومك فآويناك أوَلم يكذبوك فصدقناك أوَلم يخذلوك فنصرناك » قال : فمازال ﷺ يقول حتى جثوا على الركب ، وقالوا : أموالنا في أيدينا لله ولرسوله ، قال : فنزلت ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين عن عبد المؤمن بن علي ، عن عبد السلام عن يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف بإسناده مثله أو قريباً منه . وفي الصحيحين في قسم غنائم حنين قريب من هذا السياق ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية ، وذكر نزولها في المدينة فيه نظراً لأن السورة مكية وليس يظهر بين هذه الآية وهذا السياق مناسبة ، والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا رجل سماه ، حدثنا حسين الأشقر عن قيس عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ قالوا : يارسول الله ، من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم ؟ قال«فاطمة وولدها رضي الله عنهما» وهذا إسناد ضعيف فيه مبهم لا يعرف عن شيخ شيعي مخترق وهو حسين الأشقر ولايقبل خبره في هذا المحل ، وذكر نزول الآية في المدينة بعيد فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضي الله عنها أولاد بالكلية فإنها لم تتزوج بعلي رضي الله عنه إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كما رواه عنه البخاري ولاننكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم ، فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً ، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحية الواضحة الجلية ، كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه وعلي وأهل ذريته رضي الله عنهم أجمعين .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ، وإنهما لم يفترقا حتى يردا علي الحوض» وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون أن إسماعيل بن أبي خالد عن يزيد بن أبي زياد ، عن عبد الله بن الحارث بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال : قلت يارسول الله إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم ببشر حسن ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ، قال : فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً وقال «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله» .

ثم قال أحمد : حدثنا جرير عن يزيد بن أبي زياد ، عن عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب بن ربيعة ، قال : دخل العباس رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فقال إنا لنخرج فنرى قريشاً تحدث ، فإذا رأونا سكتوا ؛ فغضب رسول الله ﷺ ودر عرق بين عينيه ثم قال ﷺ «والله لا يدخل قلب امرىء مسلم إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتي» ، وقال البخاري : حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب ، حدثنا خالد ، حدثنا شعبة عن واقد قال : سمعت أبي يحدث عن ابن عمر رضي الله عنهما عن

أبي بكر - هو الصديق - رضي الله عنه قال : ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته . وفي الصحيح أن الصديق رضي الله عنه قال لعلي رضي الله عنه : والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي ، وقال عمر بن الخطاب للعباس رضي الله عنهما والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ، لأن اسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب . فحال الشيخين رضي الله عنهما هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك ، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين رضي الله عنهما وعن سائر الصحابة أجمعين .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أبي حيان التيمي ، حدثني يزيد بن حيان قال : انطلقت أنا وحصين بن ميسرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم رضي الله عنه ، فلما جلسنا إليه قال حصين : لقد لقيت يازيد خيراً كثيراً ، رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت معه ، لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً ، حدثنا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ ، فقال : ياابن اخي لقد كبر سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ فما حدثتكم فاقبلوه وما لا فلا تكلفونيه ، ثم قال رضي الله عنه : قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر ووعظ ، ثم قال ﷺ «أما بعد ، أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وإني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه وقال ﷺ «وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي» فقال له حصين : ومن أهل بيته يازيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : إن نساءه لسن من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده ، قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس رضي الله عنهم ، قال : أكلّ هؤلاء حرم عليه الصدقة ؟ قال : نعم ، وهكذا رواه مسلم والنسائي من طرق يزيد بن حيان به .

وقال أبو عيسى الترمذي : حدثنا علي بن المنذر الكوفي ، حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا الأعمش عن عطية عن أبي سعيد والاعمش عن حبيب بن أبي ثابت ، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ «إني تارك فيكم ماإن تمسكتم به لن تضلوا بعدي : أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض ، والآخرة عترة أهل بيتي ولَن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما» تفرد بروايته ثم قال : هذا حديث حسن غريب . وقال الترمذي ايضاً : حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفي ، حدثنا زيد بن الحسن عن جعفر بن محمد بن الحسن عن ابيه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب ، فسمعته يقول «ياأيها الناس إني تركت فيكم ماإن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي» تفرد به الترمذي أيضاً ، وقال : حسن غريب ، وفي الباب عن أبي ذر وأبي سعيد وزيد بن أرقم وحذيفة بن أسيد رضي الله عنهم .

ثم قال الترمذي أيضاً : حدثنا أبو داود سليمان الأشعث ، حدثنا يحيى بن معين ، حدثنا هشام بن يوسف عن عبد الله بن سليمان النوفلي ، عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، قال : قال رسول الله ﷺ «أحبوا الله تعالى لما يغذوكم من نعمه ، وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي بحبي» ثم قال : حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه ، وقد أوردنا أحاديث أخر عند قوله تعالى : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ بما أغنى عن إعادتها ههنا ، ولله الحمد والمنة . وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا مفضل بن عبد الله عن أبي اسحاق عن حنش ، قال : سمعت أبا ذر رضي الله عنه وهو آخذ بحلقة الباب يقول : ياأيها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن أنكرني فأنا أبو ذر سمعت رسول الله ﷺ يقول «إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح عليه الصلاة والسلام من دخلها نجا ، ومن تخلف عنها هلك» هذا بهذا الإسناد ضعيف .

وقوله عز وجل ﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً﴾ أي ومن يعمل حسنة نزد له فيها حسناً أي أجراً وثواباً ، كقوله تعالى : ﴿إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ ، وقال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها . وقوله تعالى : ﴿إن الله غفور شكور﴾ أي يغفر الكثير من السيئات ويكثر القليل من الحسنات ، فيستر ويغفر ويضاعف فيشكر ، وقوله جل وعلا ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ أي لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿يختم على قلبك﴾ أي يطبع على قلبك وسلبك ماكان آتاك من القرآن ، كقوله جل جلاله ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ أي لانتقمنا منه أشد الانتقام ، وماقدر أحد من الناس أن يحجز عنه .

وقوله جلت عظمته ﴿ويمح الله الباطل﴾ ليس معطوفاً على قوله ﴿يختم﴾ فيكون مجزوماً بل هو مرفوع على الابتداء . قاله ابن جرير ، قال : وحذفت من كتابته الواو في رسم مصحف الإمام ، كما حذفت في قوله ﴿سندع الزبانية﴾ وقوله

تعالى : ﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير﴾ . وقوله عز وجل ﴿ويحق الحق بكلماته﴾ معطوف على ﴿ويمح الله الباطل ويحق الحق﴾ أي يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه بكلماته ، اي بحججه وبراهينه ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي بما تكنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر .

وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه أنه من كرمه وحلمه أن يعفو ويصفح ويستر ويغفر ، وكقوله عز وجل ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ وقد ثبت في صحيح مسلم رحمة الله عليه ، حيث قال : حدثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قالا : حدثنا عمر بن يونس ، حدثنا عكرمة بن عمار ، حدثنا إسحاق بن أبي طلحة ، حدثني أنس بن مالك ، وهو عمه رضي الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ «لله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح» . وقد ثبت أيضاً في الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه نحوه .

وقال عبد الرزاق عن معمر ، عن الزهري في قوله تعالى : ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ إن أبا هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في المكان الذي يخاف أن يقتله فيه العطش» وقال همام بن الحارث : سأل ابن مسعود رضي الله عنه عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها ؟ قال : لابأس به ، وقرأ ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ الآية ؛ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث شريح القاضي عن إبراهيم بن مهاجر عن إبراهيم النخعي ، عن همام فذكره ، وقوله عز وجل ﴿ويعفو عن السيئات﴾ أي يقبل التوبة في المستقبل ، ويعفو عن السيئات في الماضي ﴿ويعلم ما تفعلون﴾ أي هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم ومع هذا يتوب على من تاب إليه .

وقوله تعالى : ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قال السدي : يعني يستجيب لهم ، وكذا قال ابن جرير : معناه يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم ، وحكاه عن بعض النحاة ، وأنه جعلها كقوله عز وجل ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ ثم روى هو وابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن شقيق بن سلمة ، عن سلمة بن سبرة قال : خطبنا معاذ رضي الله عنه بالشام ، فقال : أنتم المؤمنون وأنتم أهل الجنة ، والله إني لأرجو أن يدخل الله تعالى من تسبون من فارس والروم الجنة وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعني أحدهم عملاً قال : أحسنت رحمك الله ، أحسنت بارك الله فيك ثم قرأ ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله﴾ .

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية جعل قوله ﴿الذين يستمعون القول﴾ أي هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه كقوله تبارك وتعالى : ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله﴾ والمعنى الأول أظهر لقوله تعالى : ﴿ويزيدهم من فضله﴾ أي يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك . ولهذا قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن المصفى ، حدثنا بقية ، حدثنا اسماعيل بن عبد الله الكندي ، حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ويزيدهم من فضله﴾ قال «الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم معروفاً في الدنيا» وقال قتادة عن إبراهيم النخعي في قوله عز وجل ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قال : يشفعون في إخوانهم ﴿ويزيدهم من فضله﴾ قال : يشفعون في إخوان إخوانهم . وقوله عز وجل ﴿والكافرون لهم عذاب

شديد ﴾ لما ذكر المؤمنين ومالهم من الثواب الجزيل ذكر الكافرين ومالهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم .

وقوله تعالى : ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً .

وقال قتادة : كان يقال خير العيش مالا يلهيك ولايطغيك ، وذكر قتادة حديث «إنما أخاف عليكم مايخرج الله تعالى من زهرة الحياة الدنيا» وسؤال السائل : أيأتي الخير بالشر ؟ الحديث . وقوله عز وجل ﴿ولكن ينزل بقدر مايشاء أنه بعباده خبير بصير ﴾ أي ولكن يرزقهم من الرزق مايختاره مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك فيغني من يستحق الغنى ويفقر من يستحق الفقر كما جاء في الحديث المروي «إن من عبادي من لايصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه وإن من عبادي من لايصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه» .

وقوله تعالى : ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعدما قنطوا ﴾ أي من بعد إياس الناس من نزول المطر ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه كقوله عز وجل ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾ وقوله جل جلاله ﴿وينشر رحمته ﴾ أي يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية . قال قتادة : ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : ياأمير المؤمنين قحط المطر وقنط الناس . فقال عمر رضي الله عنه : مطرتم ، ثم قرأ ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد ﴾ أي هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم وهو المحمود العاقبة في جميع مايقدره ويفعله .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

يقول تعالى: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خلق السموات والأرض وما بث فيهما﴾ أي ذرأ فيهما أي في السموات والأرض ﴿من دابة﴾ وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم وقد فرقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض ﴿وهو﴾ مع هذا كله ﴿على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ أي يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق .

وقوله عز وجل ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ أي مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فانما هي عن سيئات تقدمت لكم ﴿ويعفو عن كثير﴾ أي من السيئات فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ وفي الحديث الصحيح «والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلا كفر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها» . وقال ابن جرير : ثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، حدثنا أيوب قال : قرأت في كتاب أبي قلابة قال نزلت ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ وأبو بكر رضي الله عنه يأكل فأمسك وقال : يا رسول الله إني أرى ما عملت من خير وشر ، فقال «أرأيت ما رأيت مما تكره ، فهو من مثاقيل ذر الشر وتدخل مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة» وقال : قال أبو بكر إدريس فاني أرى مصداقها في كتاب الله تعالى : ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ ثم رواه من وجه آخر عن أبي قلابة عن أنس رضي الله عنه قال والأول أصح .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع ، حدثنا مروان بن معاوية الفزاري ، حدثنا الأزهر بن راشد الكاهلي عن الخضر بن القواس البجلي عن أبي سخيلة عن علي رضي الله عنه قال ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله عز وجل ، وحدثنا به رسول الله ﷺ ، قال «ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ، وسأفسرها لك يا علي : ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم والله تعالى أحلم من أن يثني

عليه العقوبة في الآخرة وما عفا الله عنه في الدنيا فالله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه» وكذا رواه الإمام أحمد عن مروان بن معاوية وعبدة عن أبي سخيلة قال : قال علي رضي الله عنه فذكر نحوه مرفوعاً .

ثم روى ابن أبي حاتم نحوه من وجه آخر موقوفاً فقال : حدثنا أبي ، حدثنا منصور بن أبي مزاحم ، حدثنا أبو سعيد بن أبي الوضاح عن أبي الحسن عن أبي جحيفة قال دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يعيه ؟ قال فسألناه فتلا هذه الآية ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ قال ما عاقب الله تعالى به في الدنيا فالله أحلم من أن يثني عليه بالعقوبة يوم القيامة وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود عفوه يوم القيامة . وقال الإمام أحمد : حدثنا يعلى بن عبيد ، حدثنا طلحة يعني ابن يحيى عن أبي بردة عن معاوية هو ابن أبي سفيان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله تعالى عنه به من سيئاته» وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا حسن عن زائدة عن ليث عن مجاهد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ «إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها» .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي ، حدثنا أبو أسامة عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن هو البصري قال في قوله تبارك وتعالى : ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ قال لما نزلت قال رسول الله ﷺ «والذي نفس محمد بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر» . وقال ايضاً : حدثنا أبي ، حدثنا عمر بن علي ، حدثنا هشيم عن منصور عن الحسن عن عمران بن حسين رضي الله عنه قال : دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلي في جسده فقال له بعضهم إنا لنبأس لك لما نرى فيك ، قال فلا تبتئس بما ترى فان ما ترى بذنب وما يعفو الله عنه أكثر ثم تلا هذه الآية ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ .

وحدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن الحميد الحماني ، حدثنا جرير عن أبي البلاد قال : قلت للعلاء بن بدر ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ وقد ذهب بصري وأنا غلام ؟ قال فبذنوب والديك . وحدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا وكيع عن عبد العزيز بن أبي داود عن الضحاك قال : ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب ثم قرأ الضحاك ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ ثم يقول الضحاك : وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره وهي الجواري في البحر كالأعلام أي كالجبال ؛ قاله مجاهد والحسن والسدي والضحاك : أي هذه كالجبال في البر ﴿إن يشأ يسكن الريح﴾ أي التي تسير في البحر بالسفن لو شاء لسكنها حتى لا تحرك السفن بل تبقى راكدة لا تجيء ولا تذهب بل واقفة على ظهره أي على وجه الماء ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار﴾ أي في الشدائد ﴿شكور﴾ أي إن في تسخيره البحر وإجرائه في الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم لدلالات على نعمه تعالى على خلقه لكل صبار أي في الشدائد شكور في الرخاء . وقوله عز وجل ﴿أو يوبقهن بما كسبوا﴾ أي ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها ﴿ويعف عن كثير﴾ أي من ذنوبهم ولو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر .

وقال بعض علماء التفسير معنى قوله تعالى : ﴿أو يوبقهن بما كسبوا﴾ أي لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال آبقة لا تسير على طريق ولا إلى جهة مقصد ، وهذا القول يتضمن هلاكها وهو مناسب للأول وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح لقواه فشردت وأبقت وهلكت ، ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة كما يرسل المطر بقدر الكفاية ولو أنزله كثيراً جداً لهدم البنيان أو قليلا لما أنبت الزرع والثمار حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحاً من أرض أخرى غيرها لأنهم لا يحتاجون إلى مطر ولو أنزل عليهم لهدم بنياتهم

وأسقط جدرانهم ، وقوله تعالى : ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص﴾ أي لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا فإنهم مقهورون بقدرتنا .

فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى محقراً لشأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني بقوله تعالى : ﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا﴾ أي مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به فإنما هو متاع الحياة الدنيا وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محالة ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾ أي وثواب الله تعالى خير من الدنيا وهو باق سرمدي فلا تقدموا الفاني على الباقي ولهذا قال تعالى : ﴿للذين آمنوا﴾ أي للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات .

ثم قال تعالى : ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش في سورة الأعراف ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ أي سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس ليس سجيتهم الانتقام من الناس . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله وفي حديث آخر كان يقول لأحدنا عند المعتبة «ما له تربت يمينه» وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان عن زائدة عن منصور عن إبراهيم قال : كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا وكانوا إذا قدروا عفوا .

وقوله عز وجل ﴿والذين استجابوا لربهم﴾ أي اتبعوا رسله وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره ﴿وأقاموا الصلاة﴾ وهي أعظم العبادات لله عز جل ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أي لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها كما قال تبارك وتعالى : ﴿وشاورهم في الأمر﴾ الآية ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ليطيب بذلك قلوبهم وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم فاجتمع رأي الصحابة كلهم رضي الله عنهم على تقديم عثمان عليهم رضي الله عنهم ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب .

وقوله عز وجل : ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم﴾ مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ونزلوا من جبل التنعيم فلما قدر عليهم مع قدرته على الانتقام وكذلك عفوه ﷺ عن غوث بن الحارث الذي أراد الفتك به حين اخترط سيفه وهو نائم فاستيقظ ﷺ وهو في يده مصلتاً فانتهره فوضعه من يده وأخذ رسول الله ﷺ السيف في يده ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره أمر هذا الرجل وعفا عنه وكذلك عفا ﷺ عن لبيد بن الأعصم الذي سحره عليه السلام ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه وكذلك عفوه ﷺ عن المرأة اليهودية ـ وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمد بن سلمة ـ التي سمت الذراع يوم خيبر ـ فأخبره الذراع بذلك فدعاها فاعترفت فقال ﷺ «ما حملك على ذلك ؟» قالت : أردت إن كنت نبياً لم يضرك وإن لم تكن نبياً استرحنا منك فأطلقها عليه الصلاة والسلام ولكن لما مات منه بشر بن البراء رضي الله عنه قتلها به ، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

قوله تبارك وتعالى : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ كقوله تعالى : ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ وكقوله ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ الآية ، فشرع العدل وهو القصاص وندب إلى الفضل وهو العفو كقوله جل وعلا : ﴿والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ ولهذا قال ههنا ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ أي لا يضيع ذلك عند الله كما صح ذلك في الحديث «وما زاد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزا» وقوله تعالى : ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ أي المعتدين وهو المبتدىء بالسيئة .

ثم قال جل وعلا : ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ أي ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم . قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع ، حدثنا معاذ بن معاذ ، حدثنا ابن عون قال : كنت أسأل عن الانتصار في قوله تعالى ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ فحدثني علي بن زيد بن جدعان عن أم محمد امرأة أبيه قال ابن عون : زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، قالت : قالت أم المؤمنين رضي الله عنها : دخل علينا رسول الله ﷺ وعندنا زينب بنت جحش رضي الله عنها ، فجعل النبي ﷺ يصنع بيده شيئاً فلم يفطن لها ، فقلت بيده حتى فطنته لها فأمسك ، وأقبلت زينب رضي الله عنها تفحم لعائشة رضي الله عنها فنهاها ، فأبت أن تنتهي ، فقال لعائشة رضي الله عنها «سبيها» فسبتها فغلبتها ، وانطلقت زينب رضي الله عنها فأتت علياً رضي الله عنه فقالت إن عائشة تقع بكم وتفعل بكم فجاءت فاطمة رضي الله عنها فقال ﷺ لها «إنها حبة أبيك ورب الكعبة» فانصرفت ، وقالت لعلي رضي الله عنه : إني قلت له ﷺ كذا وكذا ، فقال لي كذا وكذا ، قال : وجاء علي إلى النبي ﷺ وكلمه في ذلك ، هكذا أورد هذا السياق ، وعلي بن زيد بن جدعان ، يأتي في رواياته بالمنكرات غالباً ، وهذا فيه نكارة ، والصحيح خلاف هذا السياق ، كما رواه النسائي وابن ماجة من حديث خالد بن سلمة الفأفاء ، عن عبد الله البهي عن عروة ، قال : قالت عائشة رضي الله عنها ؛ ما علمت حتى دخلت علي زينب بغير إذن وهي غضبى ، ثم قالت لرسول الله ﷺ : حسبك إذا قلبت لك ابنة أبي بكر درعها ، ثم أقبلت علي فأعرضت عنها ، حتى قال النبي ﷺ «دونك فانتصري» فأقبلت عليها حتى رأيت ريقها قد يبس في فمها ما ترد علي شيئاً ، فرأيت النبي ﷺ يتهلل وجهه ، وهذا لفظ النسائي .

وقال البزار : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا أبو غسان ، حدثنا أبو الأحوص عن أبي حمزة عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ «من دعا على من ظلمه فقد انتصر» ورواه الترمذي من حديث أبي الأحوص عن أبي حمزة واسمه ميمون ، ثم قال : لا نعرفه إلا من حديثه ، وقد تكلم فيه من قبل حفظه . وقوله عز وجل : ﴿إنما السبيل﴾ أي إنما الحرج والعنت ﴿على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق﴾ أي يبدءون الناس بالظلم ، كما جاء في الحديث الصحيح «المستبان ما قالا ، فعلى البادىء ما لم يعتد المظلوم» ﴿أولئك لهم عذاب أليم﴾ أي شديد موجع .

قال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا سعيد بن زيد أخو حماد بن زيد ، حدثنا عثمان الشحام ، حدثنا محمد بن واسع قال : قدمت مكة فإذا على الخندق قنطرة ، فأخذت فانطلق بي إلى مروان بن المهلب ، وهو أمير على البصرة فقال ما حاجتك يا أبا عبد الله ؟ قلت : حاجتي إن استطعت أن تكون كما كان أخو بني عدي ، قال : ومن أخو بني عدي ؟ قال العلاء بن زياد : استعمل صديقاً له مرة على عمل ، فكتب إليه : أما بعد ، فإن استطعت أن لا تبيت إلا وظهرك خفيف ، وبطنك خميص ، وكفك نقية من دماء المسلمين وأموالهم ، فإنك إذا فعلت ذلك ، لم يكن عليك سبيل ﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم﴾ فقال مروان : صدق والله ونصح ، ثم قال : ما حاجتك يا أبا عبد الله ، قلت : حاجتي أن تلحقني بأهلي ، قال : نعم ، رواه ابن أبي حاتم ، ثم إن الله تعالى ، لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص ، قال نادباً إلى العفو والصفح ﴿ولمن صبر وغفر﴾ ، أي صبر على الأذى ، وستر السيئة ﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ قال سعيد بن جبير : يعني لمن حق الأمور التي أمر الله تعالى بها ، أي لمن الأمور المشكورة ، والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل ، وثناء جميل .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمران بن موسى الطرسوسي ، حدثنا مصمد بن يزيد خادم الفضيل بن عياض قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً ، فقل : يا أخي اعف عنه فإن العفو أقرب للتقوى ، فإن قال : لا يحتمل قلبي العفو ، ولكن أنتصر كما أمرني الله عز وجل ، فقل له : إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو ، فإنه باب واسع ، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله ، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل ، وصاحب الانتصار يقلب الأمور .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى يعني ابن سعيد القطان ، عن ابن عجلان ، حدثنا سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبي ﷺ جالس ، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم ، فلما أكثر رد عليه بعض قوله ، فغضب النبي وقام ، فلحقه أبو بكر رضي الله عنه فقال : يا رسول الله إنه كان يشتمني وأنت جالس ، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت ، قال «إنه كان معك ملك يرد عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان ـ ثم قال ـ يا أبا بكر : ثلاث كلهن حق : ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله ، إلا أعزه الله تعالى بها ونصره ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة ؛ وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة ، إلا زاده الله عز وجل بها قلة» وكذا رواه أبو داود عن عبد الأعلى بن حماد عن سفيان ابن عيينة قال : ورواه صفوان بن عيسى كلاهما عن محمد بن عجلان ، ورواه من طريق الليث عن سعيد المقبري عن بشير بن المحرر عن سعيد بن المسيب مرسلاً ، وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى ، وهو مناسب للصديق رضي الله عنه .

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة أنه ما شاء كان ولا راد له ، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له ، وأنه من هداه فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، كما قال عز وجل : ﴿ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ ثم قال عز وجل مخبراً عن الظالمين وهم المشركون بالله ﴿لما رأوا العذاب﴾ أي يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا ﴿يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ كما قال جل وعلا : ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار ، فقالوا : يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ . وقوله عز وجل : ﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ أي على النار ﴿خاشعين من الذل﴾ أي الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ قال مجاهد : يعني ذليل أي ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة ، وما هو أعظم مما في نفوسهم ، أجارنا الله من ذلك . ﴿وقال الذين آمنوا﴾ أي يقولون يوم القيامة ﴿إن الخاسرين﴾ أي الخسار الأكبر ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ أي ذهب بهم إلى النار فعدموا لذتهم في دار الأبد وخسروا أنفسهم ، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم وأهاليهم وقراباتهم فخسروهم ﴿ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ أي دائم سرمدي أبدي لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها . وقوله تعالى : ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ أي ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ومن يضلل الله فما له من سبيل﴾ أي ليس له خلاص .

ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ

سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة ، حذر منه وأمر بالاستعداد له ، فقال ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ أي إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون ، وليس له دافع ولا مانع . وقوله عز وجل : ﴿ما لكم من ملجأ يومئذٍ وما لكم من نكير﴾ أي ليس لكم حصن تتحصنون فيه ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى ، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته ، فلا ملجأ منه إلا إليه ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر﴾ . وقوله تعالى : ﴿فإن أعرضوا﴾ يعني المشركين ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي لست عليهم بمسيطر ، وقال عز وجل ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ وقال تعالى : ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ وقال جل وعلا ههنا ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ أي إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم .

ثم قال تبارك وتعالى : ﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها﴾ أي إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ﴿وإن تصبهم﴾ يعني الناس ﴿سيئة﴾ أي جدب ونقمة وبلاء وشدة ﴿فإن الإنسان كفور﴾ أي يجحد ما تقدم من النعم ولا يعرف إلا الساعة الراهنة ، فإن أصابته نعمة أشر وبطر ، وإن أصابته محنة يئس وقنط ، كما قال رسول الله ﷺ للنساء «يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة : ولم يا رسول الله ؟ فقال ﷺ «لأنكن تكثرن الشكاية وتكفرن العشير ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوماً ، قالت : ما رأيت منك خيراً قط» وهذا حال أكثر النساء ، إلا من هداه الله تعالى وألهمه رشده ، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فالمؤمن كما قال ﷺ «إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» .

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، وأنه يخلق ما يشاء ﴿يهب لمن يشاء إناثاً﴾ أي يرزقه البنات فقط . قال البغوي : ومنهم لوط عليه الصلاة والسلام . ﴿ويهب لمن يشاء الذكور﴾ أي يرزقه البنين فقط ، قال البغوي : كإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لم يولد له أنثى ﴿أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً﴾ أي ويعطي لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى أي من هذا وهذا ، قال البغوي : كمحمد ﷺ ﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾ أي لا يولد له . قال البغوي : كيحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، فجعل الناس أربعة أقسام : منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإناثاً ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد له . ﴿إنه عليم﴾ أي بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ﴿قدير﴾ أي على من يشاء من تفاوت الناس في ذلك ، وهذا المقام شبيه بقوله تبارك وتعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ولنجعله آية للناس﴾ أي دلالة لهم على قدرته تعالى وتقدمس حيث خلق الخلق على أربعة أقسام ، فآدم عليه الصلاة والسلام مخلوق من تراب لا من ذكر ولا انثى ، وحواء عليها السلام مخلوقة من ذكر بلا انثى ، وسائر الخلق سوى عيسى عليه السلام من ذكر وأنثى ، وعيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر ، فتمت الدلالة بخلق عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام . ولهذا قال تعالى : ﴿ولنجعله آية للناس﴾ فهذا المقام في الآباء والمقام الأول في الأبناء وكل منهما أربعة أقسام ، فسبحان العليم القدير .

۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۖ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ

مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل ، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل ، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» . وقوله تعالى : ﴿أو من وراء حجاب﴾ كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام ، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها .

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كفاحاً» كذا جاء في الحديث ، وكان قد قتل يوم أحد ، ولكن هذا في عالم البرزخ ، والآية إنما هي في الدار الدنيا . وقوله عز وجل : ﴿أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾ كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿إنه عليّ حكيم﴾ فهو علي عليم خبير حكيم . وقوله عز وجل : ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ يعني القرآن ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ أي على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿ولكن جعلناه﴾ أي القرآن ﴿نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ كقوله تعالى : ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿وإنك﴾ أي يا محمد ﴿لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ وهو الخلق القويم ، ثم فسره بقوله تعالى : ﴿صراط الله﴾ أي وشرعه الذي أمر به الله ﴿الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ أي ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .

## سُورَةُ الزُّخْرُفِ

ترتيبها ٤٣ — آياتها ٨٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى : ﴿حم والكتاب المبين﴾ أي البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ ، لأنه نزل بلغة العرب التي هي افصح اللغات للتخاطب بين الناس ، ولهذا قال تعالى ﴿إنا جعلناه﴾ أي أنزلناه ﴿قرآناً عربياً﴾ أي بلغة العرب فصحيا واضحا ﴿لعلكم تتقون﴾ أي تفهمونه وتتدبرونه ، كما قال عز وجل ﴿بلسان عربي مبين﴾ . وقوله تعالى : ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ بين شرفه في الملأ الأعلى ليشرفه ويعظمه ويطيعه اهل الأرض ، فقال تعالى : ﴿وإنه﴾ اي القرآن ﴿في أم الكتاب﴾ أي اللوح المحفوظ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد ﴿لدينا﴾ أي عندنا ، قاله قتادة وغيره ﴿لعلي﴾ أي ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل قاله قتادة ﴿حكيم﴾ أي محكم بريء من اللبس والزيغ . وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله ، كما قال تبارك وتعالى ﴿إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لايمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين﴾ وقال تعالى :